الباب الأوّل

حياة الإلوري

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأوّل

تعريفه ونسبه

هو الإمام آدم بن الإمام عبد الباقي بن الإمام حبيب الله «أَوْي لاكِي» (التوأم) بن الشيخ عبد الله ، يلقّب بألفا (ألفع) [1] ، وبالإلوري نسبة إلى مدينة إلورن[2] عاصمة ولاية كواره ، إحدى المناطق الشمالية النيجيرية ، وبالأزهري[3]؛ وذلك بعد عودته من الوفادة العلمية إلى جامع الأزهر الشريف ، والحرمين الشريفين وسائر الشعائر الإسلامية العظيمة في الوطن العربي للتثقّف والتنوّر ، وبالعلاّمة لغزارة علمه ووفرة مادته ، وبالأديب لعلو كعبه في الفنون الأدبية والبيانية ، وبشيخ الإسلام ؛ [4] لتقدّم عمره وطول خدمته للإسلام وثقافته العربية ، وبالإمام ؛ لأنّه بنى في مركزه منبراً جامعا مكتظّا بحضور الجماهير المؤمنين مستمعين ومستفتين ومعتكفين ، ومتنسّكين وذاكرين الله وذاكرات ، وربما يقول قائل بأنه توارث الإمامة عن جده وعن أبيه إلا أنّها بكسب كما أقام أجنحة أخرى كالمطبعة ، والمكتبة ، والمستوصف ، والقاعة ،

---

(1) اختصار للكلمة العربية ، بمعنى الفاهم ، أو الفقيه ، وهو ما عرف به رجال العلم والأدب عامة في السودان ، وسلاطينها .

(2) تؤدي الكلمة عدة معان ، منها : وادي الفيل ، أو مشحذ الحديد والأسلحة ، اتخذها الصيادون منطلقهم لمزاولة نشاطاتهم قبل القوافل التجارية والعلمية والدينية. انظر : كتاب أخبار القرون من أمراء بلد إلورن ، للشيخ أحمد أبي بكر ، تحقيق الإلوري ١٩٩٢م ، ص: ٢٢.

(3) رواية شفهية عن المرحوم الوزير جنيد ، وهو لقب شرف لتعظيم كل من انتمى إلى هذا الجامع العريق تعلّما وتأثّرا ، وذلك بمنزله بصكتو ١٩٨٤م.

(4) لقبه به أجلة العلماء على امتداد البلاد .

وظلّ بذلك كله حتى آخر أنفاسه . وشاعت كنيته بـ(بابا) [1] بين أهله ثم امتدّت في أواخر حياته إلى تلامذته ؛ لخفض جناحه ، ورقّة نفسه ، وحسن معاملته بالثقة والرحمة إلى جانب القسوة المحفوفة بالرأفة لهدي الطلاب[2] ، و بآل «أَبُوْغُنْ مَتَيْ» (القائد الظافر) كناية عن كثرة خوض المعارك ، وتسجيل الانتصارات الرائعة على بعد البطولات الشاسعة والجرأة المنقطعة النظير .

كان أوسط بني أبيه ؛ إذ ينزل في الترتيب الثاني بين إخوته ، تكبره المرحومة السيدة آمنة زوج شيخه الإمام عمر التي أنجبت الأستاذ الإمام «بشير» ، ويصغره شيخنا الحاج يعقوب (أمدّ الله في عمره) ، أنشأ مدرستين عظيمتين ، إحداهما في «شاغَمو» ، والتي خرّجت من نوابغها الدكتور مصطفى خضر[3] ويوشع صادق ، وكلاهما من خيرة جيل الجامعات الوطنية في مناصرة العلم والدعوة والفكر ، والأخرى في «شَكِي» إحدى البقاع العربية العريقة توصيلا ، وترقية ، وقيادة ، ونجب من بني يعقوب ذكور كثيرون ، وأقواهم نبوغا الإمام إلياس خريج المركز وجامعة ولاية لاغوس ، ثمّ المرحومون يوسف ، وحليمة ، وحبيبة . وأما ذراريه الذين كانوا على قيد الحياة فأكبرهم الأستاذ رضوان الله ، فقد بدأ تعلّمه بمركز عمه يعقوب ثم واصل بدار العلوم ، فأعاده أبوه إلى المركز ، ثم تولى رعايته الشيخ حسن صياح ، ومن بعد رجع إلى المركز ، وظلّ به مراقب السكن الداخلي منذ أيام العلامة ، والسيّدة مريم فقد اقترنها الأستاذ الإمام عثمان سليمان أَوْلَوْسُنْ باقتناع

---

(1) كما شاعت كنية لكثير من أعلام منطقة غرب أفريقيا ، ومنهم أحمد بابا التنبكتي ، خلافا عما يدور بين المسيحيين .

(2) وشهد الفتى مكارم أخلاقه ، وأوجهها كيف يعامل طلابه وأتباعه وأبناءه ، فهو معلّمهم ومرشدهم ، لكن في ميدان العمل فيساوي معهم كأسنان المشط نازلا نفسهم منزلة الأخوة المتحابّين بلا عنوة ولا عنف .

(3) حضّر دكتوراه بإشراف المرحوم محمد قطب بجامعة أم القرى بعنوان المجتمع الإسلامي المعاصر ، وهو تحت الطبع .

أبيها ، وأنجبت له ذكورا وإناثا نجباء نعمة من الله وفضلا ، وأنبههم علما ووعياً مدير مركزه وخطيب جامعه وأمين كتبه على الإصدار والنشر الأستاذ محمّد حبيب الله ، ثم الأستاذ ثوبان سكرتير المركز ونائب خطيب جامعه تخرّج من المركز ، فجامعة الإمام ابن سعود ، ثم حضّر الماجستير في جامعة ولاية لاغوس ، ثم السيد جمال الدين الذي أنشأ الروضة الجمالية الإسلامية يرعى شئون المتعلمين والمتثقفين والحجيج بعد تخرجه من المركز ، وفضيلة تزوّجها أحد علية المركز ورُزِق منها ذرية طيبة ، وعبد الله خرّيج المركز وجامعة بايرو ، وداعية بين الشبان المسلمين ، ومدينة ، والسيد جمعة صقر بني «أبوغن متي» في تحركه النشيط ، وخفة كلامه ، وبراعة عقله ، إذا قيس عمره من بني أبيه ، فهو خريج المركز وجامعة الأزهر الشريف ، ثم عدنان آخر بني أبيه ، خريج المركز وجامعة الحكمة وله أسلوب متميز في الكتابة ، فالآخرون .

أما نسبه من قبل أبيه ، فإن سلسلته توثق العروة إن سلسلة نسبه من كلتا الجهتين توثق العروق الرصينة بين شعوب المنطقة على مسرح تبادل المنافع على كافة المستويات البيئية ؛ لما قام أبواه في تطعيم الحضارة الوطنية ، فأبوه ينتمي إلى قبيلة يوربا ، وهي التي كونت مدنية البحار والأنهار والوديان وما تزخره من لحوم طرية ومعادن كريمة سدت رمق العيش وأزاحت خشونة الفقر ، وكلح الفاقة ، فعمرت الحياة بأنعم الرونقة والزينة ، وعلت الروافد زيادة على الأكتاف الذاتية ، فجرت السفن والفلك عامرة بما تحتاج إليه الجارات القريبة والبعيدة لبناء الأسواق التجارية الثرية .

وأما الوالدة ؛ فهي برغوية الدندنية ، إحدى فصائل البرابرة العظام جاها وعزة ، فقد زرعت الصحراء القاحلة ، ثم طورتها إلى الصناعة ، فانعقدت بين أفرادها وجماعاتها حقول التجارة ما مكنتها من عقد الروابط الخارجية ، فأصبحت في أقل برهة سفارة دولية بين الأمم الكبرى . فلا غرو، أن يتلاقى مزاج الإلوري بعرقه على النمو الحضاري المجيد . فحاول أن يضعف ذلك الاحتكاك المتين فشرع فرنسا لبنين ووضع الإنكليزي على نيجيريا اللتان

تغدوان دولتين متناحرتين ، فجاء أبوه يوربويا ، وأمه برغوية . وأما الجدّ الأعلى فهو عبد الله ، قائد نهضتهم ، وجامع كتلتهم ومنشئ بنيتهم ، ورمز وحدتهم ، وإذا غلب القول بأنه أحد الحرس الملكي ، وصمت التاريخ عن مكانته فإن الدلائل القوية تحسم الجدل بأنه في المقام الأول من الوزراء الأكفاء الذين لا يبت له إلا برأيهم ، ولا تحصل الخبرة إلا باختيارهم . جاء من «أَوْيَوْلَيْ» بصحبة الملك أَلافِنْ[1] صالح «أَتِبا» بن «ألافن أَبَاوْدُنْ» استجارة بالأمير عبد السلام بن الشيخ العالم صالح بن أحمد بن جنت، وأسلم على يديه، وعاش معه زمناً طويلا يقوم بدور السفارة بين «إلورن» وبين «أويولي»[2] إلى أن قامت حركة الجهاد من قبل أبناء العالم الذين دمّروا إمبراطورية يوربا ، وعندئذ حاول «أتبا» أن يجدّد بناءها ، فتمّ له ذلك في مكنها الحالي ، ولم يزل معه عبد الله جدّ الشيخ آدم طيلة حياته ، ولما أدركته متاعب العمر ، أناب عنه ابنه حبيب «أويلك» حتى مات الملك ألافن ، وعاد إلى إلورن في عهد الأمير زبير للمرة الأخيرة ، وسكن في حارة إِدِأَبَيْ (١٨٧٠م) ، وتلمذ على مشاهير من علماء المنطقة ومن بينهم الشيخ آدم أَلَنَمُو شريك الشيخ موسى أَتَيْرَيْ ، والشيخ محمّد الأمين سَرُمِي ، ثم غادر الحارة إلى أَوْمَدا مع قائدها متعاونا معه على بناء مسجدها في عهد الأمير علي حوالي ١٨٧٢م ، وولي الشيخ حبيب الإمامة والتعليم في الكتاتيب ، ورزق ثلاثة بنين ذكرين وأنثى ، أكبرهم الإمام إلياس وأوسطهم نفيسة ، وأصغرهم الإمام عبد الباقي والد صاحب الترجمة ، ولما كبرت سنّه أسند إلى الشيخ كرنغ منصب الوعظ والإمامة[3]، ولما توفي الإمام حبيب إلى رحمة ربّه ، تولى أكبر أولاده إلياس إمامة المسجد .

---

(1) بمعنى صاحب القصر ، وهو من أعلى ألقاب ملوك يوربا.

(2) عاصمة إحدى الممالك الكبرى بغرب أفريقا ، تمتدّ حدودها من بدّي قرب مدينة إلورن شمالا إلى المحيط جنوباً.

(3) العلامة الإلوري ، نسيم الصبا في أخبار الاسلام وعلماء اليوربا ، (٢٠٤).

وأما أبوه ؛ أشجع أولاد أبيه ، وأجرأهم قوة ، وحماسة ، وإباء وحنكة ، وعقلا ، فهو الإمام عبد الباقي بن الإمام حبيب الله (١٨٧٩-١٩٥٦م) ، أصغر أولاد أبيه الثلاثة ، الإمام إلياس ، ونفيسة ، تلقى مبادئ علومه على يد أخيه ، ثم واصلها على الشيخ مالك «ألهوسا» الملقب بـ(أيسنتوبوا الكبير) ، والشيخ أحمد أريكيهويو ، ولا يحصى عدد من استمع إليهم ، وتأثّر بهم من علماء وفقهاء ، وتنسكا ، وولاء ، وخدمة .

كان الوالد يهتمّ بتعليم الصبيان القرآن الكريم ، ومبادئ العلوم الإسلامية في العقيدة والعبادة ، والسلوك ، ويضيف إليه مزاولة التجارة البسيطة التي يتجوّل بها في مدن أَوْيَوْ ، وإِجَيْبُو ، وإِبادَنْ ، يوحي ذلك بأنه من أعفة يكفّون وجوههم من الضراعة والمسألة ، فحدا بذراريه أن يتخذوا العلم صناعة وتجارة رائجة ، وعلى الرغم من أنّه كان من العلماء المتوسّطين ؛ فإنّه قد ألم إلمامة واسعة فكون له ثقافة ووعيا متوقّداً لتفتح ذهنه وإتقانه ألسنة هوسا ، وفلانة ، ودند ، وبربر ، ونوفي ، إلى جانب يوربا لسانه الأصيل ، ويعتني اعتناء بالغا بالأحداث التي سبقته ، ويستوحيها في معارض كلامه ، ومواعظه، وقد أورث ذراريه تلك التاريخية العظيمة ، فعرفوا بتقدير نعمة وعي الأمور ومراعاة الأحداث التي تغذي العقل ، وتنمي الذاكرة ، وتذكي الحافظة .

ثم ألقت بالشيخ عبد الباقي عصا الترحال إلى جمهورية بنين (الداهومي) ، وسكن في مدن (برقو) ، نازلا في بلدة (وسا) ، وهي من أعمال (جوغو) عاصمة (دند) ، على بعد أربعين ميلا شمالا ، وعلى مائة كيلومتر من نِكِي عاصمة بُوسا ، وعيّن إمام مسجدها وواعظها ، فشرع في أنشطته المتضافرة من تعليم وإمامة ودعوة ، وكان يكثر الترداد على مدينة (جوغو) لاستيضاح ما أشكل عليه[1] ، وهي عهدئذ موئل المعلّمين والمفتين من العرب ، والبرابرة والشناقطة ، والوناغرة القادمين من شمال البلاد ، وخلال بقائه في هذه المنطقة

---

(1) الإلوري ، من هنا نشأت وهكذا تعلمت حتى تخرجت ص٥ .

تمّ له عقد زوجيه ، فرزق من الأولى السيّدة آمنة ، والعلامة الإلوري ، والسيد يوسف ، والسيدة حليمة ، بينما أتى من الأخيرة حبيبة ، والأستاذ يعقوب[1].

وفي عام ١٩٢٦م ، غادر الوالد بنين إلى بلاده ، واستغرقت رحلته على الأقدام ثلاث سنين ، ولم ينزل في بقعة إلاّ واستمرّ في وعظه وتدريسه إلى أن وصل إلى إلورن ١٩٢٩م ، مواظبا سيرته الطيّبة في حبّ العلم وتقدير أهله ، ومن بين هؤلاء الذين يديم الاستماع إليهم ؛ الشيخ بيغوري ، والشيخ إندا صلاتي ، وصديقه جيجي ، ومحمّد الوزير الأطركمي . وعلم أنّه كان من أتباع مالم محمّد السادس انفاوي كوكَيْهُو كَوبّيْرَيْ[2] سلطان الوعاظ عبر حملاته الواسعة للإرشاد في معظم بلدان غرب أفريقيا ، وأنّه يوالي موالاة صافية الأمراء بني الشيخ صالح بن أحمد بن جنت ، ويعتقد أحقيتهم في الإمارة تعظيماً للشعائر الإسلامية ، ويبدي عواطف مجيدة في الزحف الإسلامي المقدّس . وعلى هذا الأساس شارك في معارك (أَوْفا) ، و(أَوْرِيْ مَوَبّيْ) ضدّ الكفرة المواطنين والاستعمار الإنكليزي ، حتى النكبة الكبرى التي راح فيها الجنود المسلمون شهداء[3] ، ومن بعد توفي الشيخ الوالد على أثر مرض شديد يوم الجمعة في أواخر رجب عام ١٢٧٥هـ ، ودفن في روضة المركز الإسلامي ، رحمه الله رحمة واسعة .

وأما أمّه الأميرة عائشة ؛ فينتهي نسبُها إلى قبيلة «دندي» من شعب بربر ، ومن الملوك ذوي بوق ببلدة (وسا) السابق ذكرها ، واشتهرت بالنسك ، والزهد ، والعكوف على العبادة ، والطهر ، وبرجاحة العقل ، وسداد الرأي ، وبالعفة ، والنزاهة ، وشاع أنّها توثر أبناء ضرّتها على فلذات أكبادها عند الكفالة

---

(1) الشيخ يعقوب بن عبد لباقي بن عبد الله رواية شفهية ١٩٩٠م ، بمنزله بأغيغي .

(2) أخذا من قوله : **كيف يفلح من لم يتعلم أو يسائل**

(3) الإلوري ، من هنا نشأت وهكذا تعلمت حتى تخرجت ص٥ .

والرعاية[1] ، وكما اشتهرت بقصر شئونها وحاجاتها على الله ثمّ على نفسها ، وظلّت على هذه السجية الحميدة حتى عندما أغناها الله بمن يكفيها مئونة الشغل من أبناء وحفدة وتلامذة وأتباع[2] ، حتى لقيت ربّها آية بارزة في القنوت والطاعة ، ودفنت بجوار زوجها في الروضة المذكورة ، جمعهما الله في زمرة المؤمنين الصالحين بدار الخلد والرضوان .

* * *

(1) الدكتور أبوبكر عبد الملك ، رواية شفهية بمكتبه ، صكتو ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(2) شهد الكاتب لها بهذه المناقب في كثير من الأحوال منذ عهد الأخذ ، ١٩٦٨م-١٩٧١م، حتى فترة الأداء ١٩٧١م- ١٩٧٤م

obeikan.com